وهم اســمه : علمى وأدبى !

دكتور سعيد اسماعيل على

فى كتابه الشهير : الأداة الجديدة Novum organum ، يشـــير الفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون الى نوع من الأوهام يتسرب الينـــا من أجيال سابقة ، ومن خلال رسوخ فى القدم ، يكتسب مع الأيام قداسة تكبل حركة الانسان الساعى الى التغيير والتطوير ، مما يحتاج الأمر معه الـــى مراجعة لنتساءل مع جاليليو : هل هذا صحيح ؟

من تلك الأوهام ، هذه القسمة الشهيرة فى عالم التعليم بين العلمى والأدبى ٠

ولقد كانت تلك القسمة لها وجاهتها فى سالف الزمان عندما كانت هناك فئة من المعارف يحصل عليها الباحث نتيجة اصطناعه منهجا علميا أخـــر استنباطا رياضيا يقوم على التعامل مع الأرقام والرموز بحيث يكون الفيصل عند الاختلاف حول نتيجة ، هو الاحتكام الى (التجربة) والى العمليـــات الرياضية ٠

وتختلف تلك الفئة من المعارف عن فئة أخرى تقوم بالدرجة الأولى على (التذوق الوجدانى) والتأمل العقلى المجرد ، حتى اذا نشب خلاف حـــول النتيجة ، صعب الفصل فيه ، فالذوق الوجدانى عند (أ) من الناس يختلف غالبا عنه عند (ب) ولايكون أحدهما صوابا والآخر خطأ ٠ وكذلك بالنسبة للنتائج الفكرية للتأملات العقلية المجردة ٠

نتيجة لهذا ، عرف التعليم تلك القسمة الى علمى وأدبى ٠ الأول يقوم على دراسة الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، والآخر يقوم على دراســـة التاريخ والجغرافيا والفلسفة واللغات ٠ واذا كنا نجد اللغات قائمة أيضا فى القسم العلمى ، فلم يكن ذلك لأنها (علوم) وانما لأنها (أدوات) ضرورية لدراسة مختلف أفرع المعرفة ، وتظل اللغات معتبرة من الآداب ، بدليـــل اختصاص دراستها المتخصصة فى كلية (الآداب) ٠

وبناء على ذلك أيضا ، قام التعليم الجامعى ، منذ نشأته الأولى على كليتين أساسيتين لهذا التعليم كله : كلية العلوم ، لدراسة النظريات (العلمية)، وكلية الآداب لدراسة النظريات الفلسفية والاجتماعية والأدبية ٠

واذا كان عالمنا المعاصر يشهد تحولات جذرية حتمت مراجعة بعض المفاهيم والاتجاهات الأساسية فى عالمى السياسة والاقتصاد ، فنحن كذلك فى حاجة الى مراجعة جذرية لهذه القسمة (الضيزى) نتيجة تلك التحولات العلمية والفكرية والتقنية ، التى هى أشد خطرا وأبعد أثرا من تحـــولات السياسة والاقتصاد ٠

لقد أصبح مستقراً فى الأذهان الآن أن العلم : محتوى + منهج ٠ المحتوى هو مجموعة المعارف المصنفة الى هذا الفرع وذاك : فيزياء ، كيمياء ، ٠٠ الخ ٠ وأما المنهج فهو طريقة البحث والتفكير ٠

وصفة (العلمية) تكتسبها المعرفة ، لا بمحتواها وانما بمنهجها ٠ وآية ذلك ، أن هناك دراسات فى الحيوان والنبات والطبيعة ، لأرسطو وغيره من فلاسفة العصور القديمة والوسطى ، ومع ذلك ، لانعتبرها (علمية) لأنها افتقدت المنهج العلمى ٠

ولقد استطاع المنهج العلمى أن يغزو الكم الأكبر من المعارف ، مثلما رأينا فى مختلف علوم الاقتصاد والتجارة والادارة والاجتمـــاع والنفس والتربية واللغات ، مما أصبح الأمر معه محتما علينا النظر اليها باعتبارها (علوما) بمعنى الكلمة ٠

ولو تأملنا مجموعة الدراسات التى تقوم عليها كليات الآداب ، باعتبارها التجمع الرئيسى لما يسمى بـ (الأدبى) لرأينا أننا أمام (علوم) حقيقية !

فالجغرافيا : هل هى نتيجة تذوق وجدانى أو تأملات عقلية ؟

وهل يستطيع أحد أن يقول هذا أيضا على التاريخ ؟

وماذا نقول عن اللغات ؟ هل يستطيع أحد أن يشكك فى علميتها ؟

بل ان فروعا تدرس فى أقسام اللغات ، كانت ساحة للتذوق الوجدانى والتأمل العقلى ، أصبحت اليوم تعتمد على المنهج (العلمى) ونخص بالذكر : الابداع الأدبى المتمثل فى الشعر والنثر والقصة ، فقد استطاع النقد الأدبى

أن يضع من القواعد والموازين مايميز به ـ الى حد كبير ـ بين افرازات الابداع ليحكم ، على مدى جودتها ٠

وماذا تقول عن علوم الاجتماع ؟

واذا جئنا كذلك الى دراسات كلية الحقوق التى ظلت تمثل ، مع الآداب الساق الثانية لما هو (أدبى) ٠٠ من يجرؤ على أن ينفى عن دراسات القانون التجارى والقانون الدستورى ، والجنائى ، والدولى صفة العلمية ؟

وقل مثل هذا أيضا عن دراسات كليتى التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ٠٠ الخ على أى أساس اذن هذه القسمة الى أدبى وعلمى فى عصرنا الراهن ؟

اننا قد نفكر فى ظاهرة فلكية بطريقة خرافية ، فلا يكون هذا علما ، وقد نستخدم الدراسة الامبريقية لدراسة ظاهرة سلوكية ، فيكون هذا علما ٠

ومن هنا ، أفلا نعتبر مصطلحا مثل (الثقافة العلمية) الذى يطلق ليعنى به جملة المعرفة الخاصة بالفيزياء والكيمياء والرياضيات والمجالات التقنية مصطلحا صحيحا ؟ ٠ وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح (الثقافة الأدبية) ، فهو أيضا مجال من مجالات الثقافة العلمية ٠

وعلى هذا ، فنحن نقترح أن تكون التسمية : (الثقافة الانسانية) و (الثقافة الكونية (الطبيعية) على أساس محورى هذا العالم : الانسان والكون (الطبيعة) مع الاقرار بأن صفة العلمية يمكن أن تكون فى هذا المجال أو ذاك وفقا للمنهج ٠

ان القسمة الى (أدبى) و (علمى) فى التعليم العام تظهر تخلفا علميا منهجيا يتبدى فى ثنائيات عديدة ، وتجزئة صارخة تجاوزها التاريخ المعاصر ، وهناك بلدان متقدمة تجاوزت القسمة عن طريق توفير مساحة للاختيار بحيث لاتتوازى الاختصاصات وانما تتقاطع وتتكامل ٠